بشرى أبو شرار في «دورا»... جداريات تتحوّل شعراً منثوراً غنيّاً بالحكايات والذكريات

أن تقرأ لبشرى أبو شرار، الأديبة والروائية الفلسطينية التي تعيش في مدينة الاسكندرية المصرية، فهذا يعني أنك تقرأ فلسطين من ألفها إلى يائها، عبر شخصيات تشبه كثيراً الفلسطينيين، ومنهم المقاوم والفلاح والمرأة والطفل والكهل والعجوز. البائع والتاجر والحرفيّ، وكلّ مَن يعبّر عن الحياة الفلسطينية اليومية.

أن تقرأ لبشرى أبو شرار، فهذا يعني أنّك تقرأ تاريخ فلسطين وملاحم البطولات التي خاضها أبطالٌ في حكايات، يشبهون إلى حدٍّ بعيد أولئك المقاومين الكامنين للعدوّ، العاملين على إعادة فلسطين لأهلها.

أن تقرأ لبشرى أبو شرار، فهذا يعني أنك تقرأ عن ليمون يافا، وصيّادي غزّة، وعن التنور وعبق البيلسان.

اشتهرت بشرى أبو شرار بقصصها ورواياتها القريبة من القلب، وبأسلوبها الشيّق القريب إلى الشعر. ومن هذه الروايات: حنين، من هنا وهناك، أعواد ثقاب.

وفي ما يلي، ننشر مقتطفات من روايتها الجديدة «دورا»، وهي عبارة عن جداريات من الشعر المنثور، الغزيرة بالأسماء والحكايات. وعن هذه الرواية تقول الكاتبة: «نرسم بلادنا على جداريات، يظل الأزرق وشاحاً يلفّ الصبية، يعانق الفضاء، يكسر الحصار، يعلن عن ميلاد الكون...

خصلات شعرها تعانق الأزرق، تحطم سياجاً يرقّ من طيفها، قرص الشمس يسكن صدرها، ووجه لها يُلوّن من قوس قزح، ترسم ملامحها الفلسطينية، ملامح لا تشبه أحدا.

الجدارية الأولى

أعرف مدينتي تطلّ من رحم الأفق وقد تلوّنت بالأزرق، شبابيكها مشرّعة على حكايتي، بيوت تلوّنت من تراب الأرض، هل ما زالت تحفظ مكان يدي عليها؟ كنت أمرّرها أتلمس الدفء فيها، وكأن الغد كان متربصاً بي ليلاقيني بعيداً، أرنو للأفق، أنشد أن يعيدني إلى تراب من لون أو لون في تراب.

يراوغني الأزرق في سماء غربتي لعودة قريبة، وأنا مصلوبة على لوحة الانتظار، أنشد شبابيك وحوائط مدينتي التي تركت كفّ يدي الصغيرة عليها.

******

هل يأتينا الليلة؟... أم يقذف به فجر الغد إلينا؟

تقطع الصمت طقطقات عيدان تدفسها في عين النار، وزفرات لها توجعها ما بين الضلوع...صوت حان يناديها :«أماه هل يأتينا أبي هذه الليلة؟».

تعاجله بكفّ يدها المعروقة، تضعها على فمه، تشير له بأن يلوذ بالصمت، تأخذه بين ذراعيها، توشوشه بنبرة حزن تائهة ما بينها وبينه :«لا ندري يا بنيّ... اذهب لفراشك... وإن حضر سأوقظك» .

أومأ برأسه والأسى يتوسّد نظرته، أزاح يدها وأخذ طريقه إلى فراشه المطروح أرضاً بجوار إخوته، فتحة الفرن على اشتعالها، وحرارة لا تضاهي ما بقلبها من اشتعال على غياب «باجس».

******

يمضي الوقت بها، تنتظر من غاب... قد يعود إليها بزهر الياسمين... بسلّ من تين يقطفه غداة كلّ فجر... صمت يلفّ الجبال، يسدل على البيوت وحشة وريبة، هدير عربات الجيش يحوم ما بين الوديان، أصوات يردّدها الصدى، طلقات نارية، انفجارات تنقلها الريح عن كمين نصبه الفدائيون، تهب العاصفة، ينهش غضبهم كل بيت، يدخل جيشهم ناشباً مخالبه في المخادع، يهيل الجدران، ضربات أيديهم على الأبواب، تهاوى باب دارها أمام سطوة قنابلهم، وهي الجالسة أمام فتحة النار، أصوات تثقب الجدران :« انهضي يا امرأة... أين زوجك؟»...

لم تلتفت وراءها، ويداها ما زالتا ممسكتان بعيدان الحطب ليزداد الفرن اشتعالاً، تتوهج قسمات وجهها الحزين، وضابط ينهش المسافة ما بينها وبينه، قابضاً على ذراعها بقوة، وقفت عود تجذر في أعماق الأرض، ترنو لفضاء بيتها، وكلمات تتردّد صوب أذنها.

ـ نأتي هنا، وفي كلّ مرة نجد أطفاله يفترشون صحن الدار، وأنت كما أنت، في كل مرة تحملين حملاً جديداً .

أشار بيده إلى بطنها المثقلة بحمل ينبئ عن مولود قادم :«من أين لك هذا؟»...!

يجذبها من كتفها نازعاً غطاء رأسها، وقفت تتجلد بصمتها، دار يزمجر في أنحاء الدار في ثورة تعصف بكيانه المتهاوي أمامها، يستفيق من أناته قائلاً :«باجس هنا... أين هو؟... كيف يأتي؟!... وكيف يمضي ليعود من جديد؟»..!

هب الصغار من دفء فراشهم، يلم اسماعيل شال أمه الملقى على أرض الدار، يعدو الصغير فارداً ذراعيه، يجاهد في طفولة عنيدة على إزاحة أقدامهم ونعال تغوص في حاجياتهم، يدفعهم بكل قوته، يركلونه بعيداً لنهوض جديد، يصرخ فيهم:

«أبي هناك... سيعود إليكم...».

ترنو وضحة إليه بعين تبحر في بحر مالح، تحتويه ولهاث أنفاس ضاق بها صدره الصغير، يحاول الانفلات ومن خلفه اخوته، تسمرت شاخصة إليهم، تهمس من فيض ألم «هم أبناؤك يا باجس... يبحثون عن الخلاص بين جدران ضاقت بهم».

اندفعوا خارج الدار... يزيحون كل ما يجدونه أمامهم... تتبعثر الأشياء.... تتكسر... تدوي صوتاً جريحاً في فضاء الحكاية.

******

من صبح «دورا» العفي... تهمس وضحة من برعمة النهار «طالت غيبتك هذه المرة»...

بكف يدها المدرجة بعبرات الفراق، تعد الفطائر، وربيع جاء إليهم يفترش أحراج الدار... يزهر في قلوب حزينة على بوابات الانتظار، فطائر مضمخة بزعتر وزيت تعبر أرجاء المكان، وعلى رصت في السلال، تحدث نفسها: «هل لي أن أنسى يوماً ما يحبه باجس، علّه لم يعد يذكر شيئاً»... تطل من نافذة بيتها المشرّعة، تكشف أسفل الوادي... «تأخر المرسال القادم إلينا، قد يكون للوقت متسعاً لقطف التين ووضعه في السلال، كم كان يحب قطاف التين... وكم كان وجهه مشرقاً حين يأتي به إلينا، يعلن عن ميلاد فجر جديد»...

******

خمدت نار الموقد... صار رماده متكوّماً، يعلن عن حزنه لجذوة منطفئة، رائحة الطوابين تنقلها نسمات جبلية باردة، صوت يتسلل للآذان من أسفل الوادي، تسافر الريح مزمجرة في فضاء الحكاية، تعلن عن رحيل «باجس»، علا الصراخ وسط زغاريد النسوة، يهبط الجميع إلى سفح الوادي، حيث من عاش في كهوفها، يقنص، يهاجم، يوجع الغرباء من ضربات لا يعرفون من أين تأتيهم. اعتلت وضحة قمة جبلية وهي لا تعلم لزوجها طريقا، خيوط تمتد، تتلاحم نسيج من أمامها، هرعت النساء، هرول الأطفال يقتفون أثر بعضهم، روافد تنشد مصباً يهدر بهم شلالاً من قلوب وفية، طائرات مروحية تحجب شعاع شمس لنهار حزين، أخذتهم مسيرة الحكاية لآخر حدود الشمس، يصلون مكاناً تفتت فيه الجسد على جدران كهف احتواه لسنوات طويلة، العيون مصلوبة على فتحة المغارة الضيقة، وعابر إليه يلم أشلاءه، يهم بالدخول، فترفع وضحة شالها، تناوله إياه، صرخت... فردّد الصدى... دخل زاحفاً لسراديب معتمة... خرج يجرجر الجسد معانقاً به الغياب والوجع... خرج جسد «باجس» وقد لمّه شال وضحة.

******

عادت وضحة تجلس أمام التنور... ورائحة الدخان تحوم عبر التلال... عاد الوهج يضيء وجهها الذي يلتفت نحو الأبناء في فناء الدار.

******

غارق «سارية» في بحر الريشة، عاشق «دورا» الجميلة وناسها، عبد الفتاح، وائل، محمود أبو كتة، وظلال تقوده كل يوم، ظلٍ ماجد وغسان وناجي، حيث مجمع المدارس، البركة، ينحت على الحجر وجوهاً وأسماء، يلون بالأسود تاريخ وطن.

يطيّر «سارية» جداريته عليها، تهجير، شتات، تحول اللاجئ إلى مقاتل، عامل وفلاح، الأرض الأم، محمود درويش المهجر الأول، يسلب من هويته، ويقذف به خارج المكان، فيقص علينا حكايته «عابرون في كلام عابر، احملوا أسماءكم وانصرفوا... اسحبوا ساعاتكم من وقتنا وانصرفوا... خذوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذاكرة... وخذوا ما شئتم من صور كي تعرفوا أنكم لن تعرفوا».

******

جدارية تصلها بعد النصف الأول من الليل، تشخص إليها، تذوب فيها، تتكسر على أحجارها، تتماهى وخطوطها السوداء على مساحة الأبيض، تكتب :

«تصحو كنعان من رماد الأرض، تغزل من خيوط الشمس حكايتنا، عمتي فاطمة أخذها السهوم في أرض العنب والتين، ونسمات جبلية تداعب شالها، وجه عمتي، قامتها المديدة، شالها الأبيض، امرأة كنعان تلتحف الصمت، ترنو لأفق تلون بالرماد، ووجوه صارت حبيسة على وجه الحجر، تصيح طيور الوادي، تنشر الفزع في قلوب مسالمة، سكون ليل مدينتي يكشف أفاع تفحّ بالمؤامرة، تبعد المسافات بين الرجل والصبية، يتوشح بالأسود، يختزل ماضيه وحاضره في روح مقاومة، ينشد الوصول لصبية تلونت برماد الأرض، وذكريات عن العمة فاطمة تداعب الصغيرة في أرض البستان... من يأتي ليمسك خيوط الشمس ويغزل منها ملحمة بلاد لن تموت؟».

لم تكف تلقي إليه بكلماتها، ولهفة الانتظار لكلماته، يكتب إليها كلمات غامضة لها وقعها وسحرها في نفسها :«أصمت أمام هذا النص الرائع، أما صديقي الوشاح الأسود فسيصبح وردة أو الشمس».

يفك «سارية» لغز جداريته، ويعلن أنها الوردة، وأنها الشمس، يعدها بأن يخلع الأسود، ويتوشح بنورها هي... الوردة... الشمس.

في المساء ذاته، يرسل إليها وجهاً كادت أن تمحو معالمه دورة الأيام، كتب إليها :

«رفيق أخيك خليل العواودة عانق الجبل قبل رحيله، هو من ملحمة باجس مات البطل فعاش الجبل، وكما قال المعلم ماجد: من قلب الجبل أتى باجس وحتماً سيأتي الجبل بآخر يأخذ مكانه».

قد تكون صورته الوحيدة والأخيرة، عدسة التصوير لا تعاند الحقيقة، ظلت ملامح «خليل» على بهائها، ابن كنعان حنطي اللون، له أنف شامخ، كجبال دورا السامقة، وجه يقابل الشمس، فطبعت على جبينه وداعها الأخير، من رأى الشمس وهي تلون وجه خليل حيث رحل حاملاً نوره الأبدي؟.. في ليلتي هذه يجاور خليل ماجد ومن الناحية الأخرى باجس، وأنت يا سارية لا تكف البحث عن ملامح لهم من هوة ذاكرة بعيدة تجيد نحتها على صخور وادي التفاح، تبحث عن ملامح حاضرة، وترسم وجوهاً من نور الشمس، لتطل علينا وجوه لشمس لا تغيب .

******

ينبض الأزرق بروح الحكاية، رجل وامرأة كيان واحد، عين واحدة تسكنها حمرة المغيب، عين أخذتها رجفة الخوف، قد يكون لاح لها من البعد شبح يطارد حلمهما، أغصان زيتوننا حراس ليلنا، لا تنثني للريح، تجذرت في طين الأرض، ترنو نوات قادمة، عيون لا تنام تحرس فضاء الأرض، سنابل القمح وبقايا ما تبقى من نور الشمس...

******

يقصّ عليها «سارية» حكاية «خليل أبو علي».

كيف يموت الشجر واقفاً؟ كيف يسقط أبو علي صباحاً أو مساء؟ قد أكون طفلاً أو لم أولد بعد، وأبو علي يرسم الوطن، عمالاً وفلاحين بسطاء، كيف يفزع الوطن، وتنزع أعشاش العصافير، وتقطع الأشجار؟ أخبرك أن بعد رحيله لم يتبق أي شيء، كل شيء تغير، الأشجار تموت مستلقية، كل شيء مبرر، أصدقاؤك يا ماجد وجميع من كانوا معك في الجبل اليوم هم شهداء، ماتوا كأشجارنا وقوفاً، روحك اليوم ترفرف فوق بلدتك الحالمة، مرات يحرقونها ومرات تحرقهم، ترابك سنحمله إلى السماء، لم يعد مكانه على الأرض، نحمل هذا التراب المقدس ليكون شمعة أو شعلة تضيء لنا الطريق.

ـ هي طقوس رحيل، يفزع لها قلبنا، حين نسمع رشقات الرصاص يؤرق ليلنا، يمضي الليل عنا، تاركا لنا الأسود، ووجوها حبيسة الأطر، وجوه أتت إلى الحياة مسافرة، جاءت تبثنا روح المقاومة، لن تموت أوراق الشجر وقد لونت الحياة فيهم، أنت يا من ترسم حكاياتنا وتلونها، قد تكون مخلوقاً سرمدياً، يعلو صوتك، وتكبر كلماتك بحجم هذا الوطن.

تحاول أن تبثه روحاً تتخلق في كيانها من جديد: «فلتكن كل البدايات مزهرة، وتلوّنها أنت من ريشة الحكاية»..!

******

لا يكفّ «سارية» يستحضر وجوهاً طواها الغياب، من ريشة ناجي العلي وألوانه، وقد تسحبت الألوان عن قسماته، في اللوحة ظل على سهومه، هل كان يكشف الغيب؟ وحنظلة الذي قال عنه «ذلك الأيقونة التي تحفظ روحي وتحفظني من الانزلاق»، يلوّن حنظلة من حمرة المغيب، وكيف يذوب ما تبقى من روح الشمس...

يعيدها «سارية» لشعاع حب مجنون، كانت الوجوه من قبله تذوي مع الشفق الذاوي، كيف سكب ناره الرقيقة على أوراق حياتها الباردة، أي درب، أي ورود، أي صخرة أي دخان دله عليها؟

******

يأتي إليها بطائر الشمس الفلسطيني عائداً من رحلته لقلب الشمس، كتلة من نار... نحن أبناء الشمس، نطير إليها، نحلّق حولها، نبني أعشاشنا وننثر قصص الحب على أرض كنعان، وشمس لا تستدير إلا فوق روابينا، وزيتوننا...

كيف ترسم شمس مثل سارية؟.. تقتني ريشة وألواناً ترسم مدينتها حين تنام كل ليلة في حضن الأزرق، تكتب تحت لوحته «مدينتي يحوطها سياج، ومن بين فتحاته تشرئب أغصان اللوز».

في هذه الليلة اغتالت يد الغدر الأزرق في مدينتي، تهاوى البيت وتناثر زجاج حجرتي واستلقت أعمدة حملت من ذاكرتي، سقطت أوراق اللوز، صارت سيقان الشجر بلون طين الأرض، هل تجيد رسم الخيام في لحظة نهوضها لتستقبل رياحاً عاتيات، وشجر اللوز يضرب بجذوره أعماق الأرض، وكيف تشد حبالاً من الأمس يلقون عليها ثياب تلونت بالأحمر والأبيض، وخيوطاً من حرير، من لون كنعان القرمزي.

تصرخ وتبعثر كل الألوان، تكتب بمداد الشفق «الحياة هنا بعمر الكون، الحياة في مدينتي لا تموت، أغصان اللوز تنتظر ربيع الأرض لتزهر من جديد، الأزرق لن تطاله يد الغدر، مدينتي هنا حياة...

******

اليوم في صباح هذا العيد، يهاتفها «عبد الفتاح ربعي» من دورا، كان الصوت يتقطع في أثير على أحبال من هواء، ليجمع أشلاءه من جديد، دوماً يصرّ أن يذكرها أنها حاضرة في قلب الوطن، ودوماً لا يكف عن السؤال :

«متى ستأتين؟».

وإجابة لا يتغير منها شيء، «هوية، تصريح خروج، ختم الدخول، مسموح وممنوع»... يسود صمت تقطعه بضحكة تغازل في قلبه ما تبقى من روح الأمل لعودة قريبة، وأنها قد يحملها الغد، بل الساعة الآن لتكون هناك على تلال وجبال، تلمّ التين، تفتح لها الأبواب تحمل الحب في سلال، تحضرها كلمات يقولها «الربعي» حين يحضرها حزن من غابوا: «هناك من أتوا يا سيدتي على أيام خالدة محفورة في ذاكرتنا، نتذكر هؤلاء العظام، هم صنعوا تاريخنا، اتفقوا على ذلك بوجدانهم، سيف المتنبي وقلمه، لكن ليلة كانت تنتظرهم عتمتها، أرادت أن تحجبهم عنا، نسي المتنبي أن الأفئدة ليست بحاجة إلى الضوء لترى ما تخفيه العتمة، نراهم في جبل «الجوف» بدورا، ورمال غزة، ومن قرطاس المتنبي. أتذكر مسيرة وداع ماجد، أتذكر ذلك النشيد «يا شعب كبرت ثورتي، ويا أخت الشهيد تمردي. أرى منك يا شمس أن ذلك النشيد كان حقاً، بعد ما يزيد على ثلاثين سنة من الفراق...

المرصد

«24 قيراط»... نصّ مفكّك وتمثيل مفتعَل

هنادي عيسى

قبل سنتين، حقق الثنائي عابد فهد وسيرين عبد النور نجاحاً كبيراً في مسلسل «لعبة الموت»، عندما عُرض على شاشة «lbci»، وقد اختارت شركة «إيغل فيلم» منتجة هذا العمل، استثمار هذا النجاح، فوقّع صاحب الشركة مع فهد وعبد النور عقدين لبطولة مسلسل بعنوان «24 قيراط» من كتابة ريم حنا وإخراج سعيد الماروق الذي انسحب بعد أسابيع من التحضيرات بسبب خلافات مع الجهة المنتجة، وبعد ذلك تم الاتفاق مع السوري الليث حجو على تولي مهمة الإخراج. وبدأ تصوير العمل قبل بداية رمضان بثلاثة أشهر. ومع بداية رمضان، بدأ عرض المسلسل على شاشتَي «mtv» و«osn يا هلا» المشفّرة. ومع مرور عرض الحلقات، اتّضح أنّ السيناريو مفكك وهو يتناول حكاية رجل أعمال غنّي جداً هو «يوسف زهران» (عابد فهد)، المتزوج من «هيا» (ماغي بو غصن)، وله منها ولدان. وفي ليلة عيد زواجهما، يتعرض لعملية خطف هو وابنه، ويُرمى على شاطئ البحر وحده، ويعود الطفل إلى والدته بعد دفع الفدية. أما «يوسف» فتجده «ميرا» (سيرين عبد النور) على شاطئ البحر مضروباً على رأسه، فتأخذه بسيارتها إلى المستشفى للعلاج، ثم تنقله إلى منزلها في الريف حيث تعمل مربية أطفال.

تدور الأحداث ليصحو البطل فاقداً الذاكرة ولا يعرف شخصيته الحقيقية. وللأسف، فإنّ الكاتبة رسمت شخصية فاقد الذاكرة على أنه طفل «أهبل» يأكل الشوكولا ويرميه أرضاً، ويتصرف بطريقة غير مقبولة. إذ لا مبرّر علمياً يؤكد أنّ فاقد الذاكرة يفقد وقاره على رغم نسيانه ماضيه. مواقف عدّة بيّنت تفكك السيناريو والحوار الركيك، كما أنّ كشف المدير الأساسي لحادث الاختطاف من الحلقة الرابعة، وهو شقيق زوجة يوسف زهران (باسم مغنية)، خطأ دراميّ، إذ يحب أن يبقى المشاهد حائراً ويبحث عن المتورّط مدة أطول. كما أنّ ماغي بو غصن لم تكن مقنعة في أداء دور الزوجة التي فقد زوجها. فهي تحتاج إلى تمرّس في التمثيل أكثر، وعلى رغم أنّ معظم الممثلين لم يقدّموا أحسن ما لديهم، إلّا أنّ أداء ديما قندلفت يبقى الأهم، ويبيّن أنها ممثلة من الطراز الأول.

طبعاً لا يمكن أن ننكر أنّ «24 قيراط» يحظى بجماهيرية. إنما هذا لا يعني أنّه عمل مكتمل العناصر.

من هنا وهناك

● اختار النجم معين شريف المخرج زياد خوري ليعود من خلال عدسته إلى الشاشة، بعد غياب تخطى سبع سنوات. وصوّر شريف أخيراً أغنيته الجديدة «ما بتركك» على مدى يومين في عدد من المناطق اللبنانية، نذكر منها: نبع الصفا، ولبعا، ضمن جوّ يُحاكي مضمون الأغنية التي كتب كلماتها منير بوعساف ولحّنها رواد رعد، وهي من توزيع كارينا عيد.

يشار إلى أنّ «الكليب» يخضع في هذه المرحلة لعملية مونتاج، على أن يُطلق خلال عيد الفطر، ليطلّ من خلاله معين شريف ضمن حبكة رومنسية شعبية مختلفة، نفذها المخرج زياد خوري بإتقان وحرفية، لتخدم القصّة المُعالَجة.

من ناحيته، عبّر زياد خوري عن سعادته بهذا التعاون، مشيراً إلى أنّ المسؤولية كانت كبيرة، خصوصاً أنّ معين شريف اختار العودة إلى الأغنيات المصوّرة من خلال عدسته.

● أطلق الفنان هشام الحاج أغنية جديدة بعنوان «ليلي وليلات»، من كلمات الشاعر أسعد زعرب، وألحان وسام الأمير. وهي من تسجيل وتوزيع روجيه خوري ومن إنتاج شركة «الفارس».

الأغنية من اللون الشعبي اللبناني الذي اعتاد الحاج أن يقدّمه ويغنّيه في كل الحفلات والمناسبات التي يحييها في لبنان وبلاد الاغتراب. أما على صعيد موسم الصيف، فيتحضر الحاج لإحياء عددٍ من الحفلات والمهرجانات كما الأفراح، في كافة المناطق اللبنانية.

● تصدّر فيلم الأكشن «ترمينايتور غينيزيز»، من بطولة آرنولد شوارزنيغر، في يومَي العطلة الماضيين، عروض دور السينما الروسية. وأتى بعده فيلم الرسوم المتحركة «Inside Out» (اللغز).

وقال موقع «كينوبزنس. كوم» الالكتروني الروسي، إن بطولة آرنولد شوارزنيغر في الفيلم المذكور منحته الصدارة في عروض دور السينما الروسية يومَي العطلة، إذ بلغت عائداته 9.7 مليون دولار. أما العائدات الإجمالية للفيلم في روسيا فبلغت زهاء 10.06 مليون دولار.

ويشارك في بطولة الفيلم، إلى جانب شوارزنيغر، كل من غاي كورتني، وج. ك. سيمونس، وإيميليا كلارك المعروفة ببطولتها في مسلسل «لعبة العروش».

يذكر أن العائدات السينمائية لفيلم الرسوم المتحركة «Inside Out» (اللغز)، من إخراج بيت دوكتر ورونالدو ديل كارمين، بلغت يومَي العطلة الماضيين في روسيا 1.56 مليون دولار. فيما بلغت عائداته الإجمالية في روسيا 17.23 مليون دولار.

وشغل فيلم «العجلة الثالثة» من إخراج سيت ماكفارلاين المرتبة الثالثة في العروض السينمائية في روسيا يومَي العطلة الماضيين من حيث العائدات، إذ بلغت 0.91 مليون دولار.

ماري عجمي... السوريّة الأولى التي تؤسّس مجلة نسائية

سلوى صالح

على رغم النجاحات التي حققتها الدراما السورية في العقدين الماضيين من حيث الانتشار والمتابعة، إلّا أن مسلسلاتها التي تتحدث عن البيئة الشامية فشلت في إظهار الصورة المشرقة للمرأة السورية، وتجاهلت عن قصد أو غير قصد وجود شخصيات نسائية على مستوى عال من الثقافة والوعي والفاعلية في المجتمع، خصوصاً في الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن العشرين، كماري عجمي ونازك العابد اللتين أضاء مسلسل «حرائر» جوانب من حياتهما في الموسم الرمضاني الحالي.

الأميرة بديعة الحسني الجزائري حفيدة الأمير عبد القادر الجزائري المولودة عام 1930 والتي عاصرت السنوات الأخيرة من حياة ماري عجمي تقول إن الدراما السورية لم تنصف شخصية ماري التي كانت تتمتع بشخصية قوية تناضل بالقلم من خلال مجلة «العروس»، المجلة النسائية الأولى في سورية. مشيرة إلى أن السيناريو في مسلسل «حرائر» لم يكن بالمستوى المطلوب، وكذلك الحوار الذي لم يستطع نقل الواقع، ولم يتقيد بالأمانة التاريخية. فماري تستحق دوراً أكبر مع ضرورة تسليط الضوء على الأحداث المهمة في حياتها كعملها الصحافي وكتاباتها في مجلة «العروس».

وقالت الجزائري إنها تتلمذت على يد إيلين العجمي شقيقة ماري، التي علمتها الموسيقى والعزف على البيانو في مدرسة «دوحة الأدب الابتدائية» في الصالحية، وهي تعتز بالعلاقات الأسرية بين عائلتها وبين ماري التي تستحق أن يُخصَّص مسلسل يحكي عن سيرة حياتها بالتفصيل، لا مروراً عابراً لكونها تحدت ظروف الحرب الصعبة وأثبتت وجودها كمرأة سورية رائدة لها حضورها ومكانتها.

وأشارت إلى أن المدرسة الرشدية للبنات بدمشق القديمة كانت تخرّج فتيات متنوّرات أصبحن في ما بعد نساء متميزات في المجتمع السوري يتقنّ اللغات بعدما تتلمذن على أيدي أساتذة قديرين.

أما الأديبة كوليت خوري المولودة في أواخر الثلاثينات من القرن الماضي، فقالت إن مسلسل حرائر لم يتناول كل ما يتعلق بحياة ماري عجمي، لكونه يتناول نهضة سورية في تلك الفترة ونهضة المرأة بشكلٍ عام. مؤكدة أن المرأة السورية كان لها دور مهم جداً في فترة الاحتلال العثماني وكذلك فترة الاستعمار الفرنسي.

وأضافت خوري أنها لم تلتقِ ماري، لكنها كانت تسمع ما يقال عنها أنها امرأة ذكية ومحترمة وصاحبة شخصية قوية، وتضاهي أفضل الرجال. مشيرة إلى أنها كانت صديقة لجدّها فارس الخوري الذي قال عنها ذات يوم:

يا رجال الأريحية... سجلوا هذي الشهادة
ان ماري العجمية... هي مي وزيادة

وعبّرت خوري عن ارتياحها لمسلسل «حرائر» الذي تطرق للمرّة الأولى إلى شهداء السادس من أيار، والذي أعطى ماري عجمي بعضاً من حقها بعد أكثر من مئة سنة، وقالت إنها هي شخصياً كتبت عشر مقالات وكتيّبات عن ماري، وأن المسلسل انتقم لدمشق وللمرأة الشامية، ولها شخصياً من المسلسلات المسماة شامية، التي كانت الأفكار التي تطرحها سبباً من أسباب نشوء الأزمة في سورية. واضعة علامة استفهام كبيرة حول تصوير المرأة السورية على غير حقيقتها.

وتستذكر خوري أنه كان في دمشق أكثر من ستين جمعية نسائية في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، وكيف كانت المرأة السورية مشهورة بأناقتها، حتى أن أوروبيات كثيرات زرن دمشق، كنّ يحسدنها على ذلك.

وفي كتاب بعنوان «رسائل الأميرة زينب الحسنية إلى الرائدة الشامية ماري عجمي» تحدثت الكاتبة السورية سهام ترجمان عن المفكرين والكتاب والنقاد والصحافيين في سورية ولبنان الذين كتبوا وتحدثوا عن العظيمة ماري عجمي ومجلتها الشهرية السورية الرائدة «العروس» التي صدرت للمرّة الأولى عام 1910، وتوقفت عام 1925 بعدما احتفلت بها الأوساط الأدبية السورية واللبنانية في حفل تكريم للمجلة وصاحبتها.

وجاء في مقدّمة الكتاب أن الفضل الأول يعود لإيلين عجمي معلمة الموسيقى وشقيقة الصحافية والأديبة والشاعرة والمناضلة الوطنية الشامية الرائدة ماري عجمي في المحافظة على تراثها بعد وفاتها. إذ أهدت مجلدات أعداد مجلة «العروس» إلى جهات ثلاث كي تفتح بوابة تاريخ الصحافة السورية الراقية منذ قرن من الزمن، أمام عقول الأجيال السورية والعربية حتى لا يفوتها التواصل مع أقلام نساء عصر النهضة ورجالاته، وحتى لا يضيع تراث سوري مهم سابق لعصره.

توقفت ماري عجمي بحسب الكتاب عن إصدار مجلة «العروس» بسبب مواقف ممثلي الاستعمار الفرنسي في الشام من رائدة الشام الوطنية الجريئة التي رفضت التعاون ضد وطنها مع أي أجنبي مستعمر منذ أيام جمال باشا السفاح، الذي رفع شهداء السادس من أيار على المشانق وبينهم خطيبها الصحافي اللبناني اليوناني الأصل بترو باولي، فعاشت حزينة عليه ترثيه مدى الحياة.

وتعزو الكاتبة ترجمان اهتمامها بماري إلى إعجابها الشخصي ودهشتها وانبهارها بنساء ذلك العصر، من جداتنا الكاتبات الشجاعات في عصر الجهل والظلام وحريم السلاملك وحجاب العقل، إضافة إلى تقديرها أحلاماً نسائية رائدة متحرّرة العقل سافرة الوجه.

وبعد قرن من الزمن، تكتشف الكاتبة أن ماري سبقت عصرها بمئة سنة فكراً وثقافة ووطنية وتنويراً ونزوعاً للحرية والاستقلال والإبداع والتطوير والتحديث.

أما الكاتب عيسى فتوح، فقد زار ماري عجمي وهي في أواخر عمرها، فوصف منزلها في الحارة الجوانية في باب توما ـ دمشق قائلاً: هذا هو المنزل الأثري الذي كنت أتمنى أن يصبح في يوم من الأيام متحفاً يضمّ تراث ماري عجمي وأشياءها، وهو دار دمشقية واسعة في صحنها بركة ماء وأشجار نارنج وأزاهير شتى... كانت ماري صاحبة نكتة فريدة وسخرية لاذعة».

ولدت ماري عجمي في دمشق في الرابع عشر من أيار سنة 1888، درست في دمشق في المدرسة الايرلندية ثم في المدرسة الروسية ثم درست التمريض في الجامعة الأميركية في بيروت سنة 1906، ولكنها لم تكمل دراستها فمارست التعليم في لبنان وسورية وفلسطين والعراق.

أرادت ماري عجمي من إنشاء مجلتها «العروس» أن تجعل منها منبراً للأدب والفكر الإصلاحي والتربية الأخلاقية والدعوة إلى تحرير المرأة من قيودها والرجل من جموده، فكانت رائدة في هذا الحقل، وكانت المرأة الأولى التي تصدر مجلة في سورية، وساهم في تحريرها كبار الأدباء والشعراء الذين عاصروها أمثال: جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، إيليا أبو ماضي، جميل صدقي الزهاوي، معروف الرصافي، إسماعيل صبري، أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، شبلي الملاط، الشاعر القروي، الأخطل الصغير، الياس أبو شبكة، شفيق جبري، عباس محمود العقاد، إبراهيم عبد القادر المازني، فارس الخوري وسواهم. إضافة إلى بعض النساء، ما يدل على أهمية المجلة وانتشارها في عواصم العالم العربي وبلاد الاغتراب.

أسست ماري جمعية «يقظة المرأة الشامية» مع نازك العابد وفاطمة مردم وسلوى الغزي، ثم جمعية «نور الفيحاء» وناديها. ومنحهن الملك فيصل مدرسة لاحتضان بنات الشهداء.

وفي عام 1920، أسّست «النادي الأدبي النسائي» مع نخبة من السوريات. ثم انتخبت عضواً في جمعية «الرابطة الأدبية» في لجنة النقد الأدبي. وكانت ماري السيدة الوحيدة في هذه الرابطة التي كان من أبرز أعضائها خليل مردم بك، فارس الخوري، أحمد شاكر الكرمي، وفخري البارودي، وغيرهم. وجعلت منزلها صالوناً أدبياً يجتمع فيه أعضاء الرابطة.

ظلّت هذه المرأة على رغم كل شيء تنشئ المدارس وتعطي الدروس الخاصة للفتيات المتشوقات للعلم. وأقيمت لها حفلات تكريمية في حيفا ويافا في فلسطين سنة 1928، وفي دمشق سنة 1929. وعيّنت أستاذة لتدريس اللغة العربية وآدابها في مدرسة «دار السلام» لأربع سنوات بدءاً من عام 1931. كما فازت بجائزتين من الإذاعة البريطانية في المباراة الشعرية عن قصيدتها «أمل الفلاح».

توفيت ماري عجمي في 25 كانون الأول عام 1965، وأقيم لها حفل تأبين على مدرج جامعة دمشق، تحدث فيه عدد كبير من كبار الأدباء والأديبات.